العُروب في العــراق

للأستــاذ ميخائيل عواد

في المؤلفات التاريخية والبلدانية نواح متعددة ما زال يستورها شيء كثير من الغموض ، يعود بعض أسبابه إلى تساهل أصحاب تلك المؤلفات في تدوين الأخبار تدويناً يفي بالمرام ويدفع الشك ، كأن يورد المؤلف أخباراً أو أوصافاً دون أن يتقصاها ، لاعتقاده أنها من الأمور المعروفة التي لا تحتاج إلى الشرح والتدليل

من ذلك ما صادفناه لدى بحثنا في نوع من الطواحين القديمة ، التي كانت تسمى « العُرُوب » وقد شاعت كثيراً في العراق والجزيرة وبعض ما يجاورهما من البلدان . وكان البدء في استعمالها يرجع إلى ما قبل العصور الإسلامية ، ثم رافقت هـذه العصور عدة مراحل حتى أدركت القرن السادس للهجرة ، فقلّ عددها لتواتر النكبات عليها وخف استعمالها فلم يبق منها إلا آحادٌ مبعثرة في الفراتين وبعض ما ينشعب منهما[1] .

وقد أمكننا حين تتبعنا المراجع العربية القديمة الوقوف على بعض ما يوضح شيئاً من أمرها .

العروب في معاجم اللغة

لم يدر بخلد أحد من أصحاب المعاجم القديمة خاصة تحقيق منشأ كلمة عروب ، إنما كان اتفاقهم على تعريفها فقط

فقد جاء في « تاج العروس » أن « العربات : سفن كانت بدجلة ، النهر المعروف ، واحدتها عربة[2] »

وماورد في «لسان العرب لابن منظور» لا يتعدى ما ذكره التاج

وزاد صاحب القاموس عليهما في تعريفها بأنها : سفن « رواكد » كانت في دجلة[3]

(١) يروى بعض شيوخ الموصل أنهم أدركوا حوالى سنة ١٨٨٠ طاحونة منصوبة في سفينة راسية على شاطئ دجلة ؛ موثقة بالحبال ، ولا شك عندنا في أنها نوع من العروب التي عليها مدار بحثنا . وعلى ما يروون أيضاً أن استعمال هذه الطاحونة لم يدم أكثر من سنتين ثم تركت ولم يشاهدوا بعد ذلك غيرها

(٢) تاج العروس للزبيدي (١ : ٣٧٦)

(٣) القاموس المحيط للفيروزابادي (الطبعة الثالثة ١ : ١٠٣)

وقال في مادة عربة إنها : « النهر الشديد الجرى »[1] وقوله هذا يتفق وما ذكره من كان قبله أي صاحب الصحاح[2]

هذا جل ما ورد في المعاجم القديمة بشأنها ، وأما المعاجم الجديدة منها ، فقد رأينا أن ما ذكره « محيط المحيط » و« البستان » و « أقرب الموارد » ، لا يتعدى التعريف المذكور في المعاجم القديمة[3]

وأحسن المعاجم الجديدة التي أعطت للكلمة ما تستحقه من العناية والدقة هو « المعجم المساعد » ؛ فقد جاء بأنباء جلية عن منشأ كلمة العروب ؛ فهو يقول : « العربة : بمعنى الرحى ، إرَميِة وتسمى (أسونا) ؛ ومنها أخذها عوام الموصل فقالوا أستاية[4] »

وقال في مكان آخر : الأسناية : بفتح الهمزة ، وقد تكسر ؛ هي بالصابئية (أسنايا) ، وهي رحى الماء يحرك آلتها أجنحة[5] ، وكثيراً ما كانت تقام في جوار الفراتين أو ما ينشعب منهما ، وهذه الكلمة من أصل عربي ، من سنيّت الدابة : استُقِى عليها[6] »

ومما قاله أيضاً : ويحتمل أن تكون (عربة) معربة من اليونانية Atis و Harma وكذلك هي في الرومية[7]

ومما يحسن ذكره في هـذا الموضوع ما قاله صاحب التاج : « الفيلخ كصيقل ، وهي الرحى أو إحدى رحيي الماء واليد السفلى منهما ، ومنه قوله : ودرنا كما دارت على القطب فيلخ[8] »

وقد جُمعت عربة على عَرَبَات وعرب ، وجمعت الأخيرة على عُرُوب وزان قُلوب ، وهي جمع الجمع

العروب في كتب وصاف البلدان

قد يكون الرحالة بن حوقل هو الوحيد بين قدماء الكتبة الذين تكلموا بتفصيل عن هذه الطواحين بقوله : « ... وكان بالموصل

(١) القاموس (١ : ١٠٢)

(٢) الصحاح للجوهري (١ : ٨٠)

(٣) محيط المحيط لبطرس البستاني (٣ : ١٣٦٢) ، البستان لعبد الله البستاني (٢ : ١٠٤٤) ، أقرب الموارد لسعيد الشرتوني (٢ : ٧٥٩)

(٤) المساعد : وهو معجم للعلامة الأب أنستاس ماري الكرملي ، لا يزال مخطوطا عنده (ص ١٣٦٢ ، ٣)

(٥) راجع أيضا دليل الراغبين في لغة الآراميين للقس يعقوب أوجين منا (ص ٣٣ : اسونا = عروب ...)

(٦) المساعد (ص ١٠١٤ ، ٣)

(٧) المساعد (ص ١٣٦٢ ، ٢)

(٨) تاج العروس ولسان العرب في مادة (ف ى خ)

فى وسط دجلة مطاحن تعرف بالمُروب ، يَقِلّ نظيرها فى كثير من الأرض ، لأنها قائمة فى وسط ماء شديد الجرية ، موثقة بالسلاسل الحديد ، فى كل عربة منها أربعة أحجار ، ويطحن كل حجرين فى اليوم والليلة خمسين وِقْراً[1] . وهذه المُروب من الخشب والحديد ، وربما دخل فيها شىء من الساج . وكانت بـلَدَ ، المدينة التى عن سبعة فراسخ منها عُروب كثيرة دارت أعمالاً وجهازاً إلى العراق فلم يُبْقِ منها شؤم ابن حمدان ولا من أهلها باقية[2] »

ثم تطرّق إلى الكلام على العروب فى غير مدينة الموصل ، قال : « وبمدينة الحديثة منها عدد تعمل فى وسط دجلة ، وقد ملك بنو حمدان متاعها حسب ما ذكرته من حال الموصل وسائر ديار ربيعة ، وارتفاعها نحو خمسين ألف دينار ، وكان بالفرات للرقة (وقلعة جعبر) مالا يدانى هـذه العروب ولا كـكثرتها ، وبمدينة تفليس[3] فى نفس الكُر منها شىء به تقوم أقوات أهل تفليس ، وهى دونها فى الفخم والعظم ، وبتكريت وعكبرا والبَرَدان منها شىء باق . ولم تبق بركة بنى حمدان بالموصل إلا ستة أو سبعة منها (كذا . والصواب ست أو سبع) ، وليس ببغداد شىء منها[4] »

ثم عاد إلى ذكر المُروب فى تفليس أثناء كلامه على هـذه المدينة فقال : « تفليس ... وهى على نهر الكر ولها فيه عروب يطحن فيها الحنطة كما تطحن عروب الموصل والرقة وغيرهما فى الدجلة والفرات[5] »

وأشار ياقوت إلى العروب قائلاً : « العَرَبات ومفردها عربة ، وهى بلغة أهل الجزيرة : السفينة تعمل فيها رحىً فى وسط الماء الجارى مثل دجلة والفرات والخابور ، يديرها شدة جريه ، وهى مولدة فيما أحسب[1] »

وتطرق القزوينى إلى ذكرها بقوله : « ... وأهل الموصل انتفعوا بدجلة انتفاعاً كثيراً مثل شق القناة منها ونصب النواعير على الماء ، يديرها الماء بنفسه ، ونصب العَرَبات ؛ وهى الطواحين التى يديرها الماء فى وسط دجلة فى سفينة وتنقل من موضع إلى موضع[2] »

العروب فى كتب التاريخ والأدب

لعل أول نبأ بلغنا عن العروب فى المراجع التاريخية ، هو ما ذكره الشابشتى فى كتابه « الديارات[3] » لدى كلامه على دَيْر مارجرجس ، والدير الأعلى

قال فى الأول : « هذا الدير بالمزرفة (قرية كبيرة فوق بغداد على دجلة بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ ، وهى قريبة من قَطْرَبُّل) وهو أحد الديارات والمواضع المقصودة . والمتنزهون من أهل بغداد يخرجون إليه دائماً فى السُميريات لقربه وطيبه ، وهو على شاطئ دجلة . والعروب بين يديه ، والبساتين محدقة به ...[4] »

وفى الثانى : هذا الدير بالموصل ، يطل على دجلة والعروب ، وهو دير كبير عامر ...[5]

وفى حوادث سنة ٣٦٣ هـ حين استيلاء بختيار بن معز الدولة ابن بويه على الموصل ، يذكر ابن الأثير فى «الكامل» ما نصه : « ... فسار (بختيار) عن بغداد ، ووصل الموصل تاسع عشر ربيع الآخر ونزل بالدير الأعلى ، وكان أبو تغلب بن حمدان قد سار عن الموصل لما قرب منه بختيار ، وقصد سنجار وكسر العروب ، وأخلى الموصل من كل ميرة[6]

وهـذه الرواية توافق ما نقله القلقشندى عن نسخة كتاب

(١) الوقر (بكسر الواو : الحمل الثقيل) وقيل هو الثقل ، يحمل على ظهر أو رأس . يقال : جاء يحمل وقره ، وجمعه أوقار (التاج ٣ : ٦٠٥) ، والمراد هنا بالوقر أربعة قناطير

(٢) صورة الأرض « المسالك والممالك » لابن حوقل (طبعة كراموز فى ليدن سنة ١٩٣٨ ، القسم الأول ص ٢١٩)

(٣) قال ياقوت فى معجم البلدان (طبع ليبسك ١ : ٨٥٧) : « ... ويجرى فى وسطها [تفليس] نهر يقال له الكر يصب فى البحر ، وفيها عروب تطحن » وهذا تحريف ؛ صوابه عروب

(٤) ابن حوقل (ص ٢١٩)

(٥) ابن حوقل (القسم الثانى ص ٣٤٠)

(١) معجم البلدان (٣ : ٦٣٢ ، مادة عربات)

(٢) آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى (طبع غوتنجن ص ٣٠٩)

(٣) كتاب الديارات لأبى الحسين على بن محمد المشهور بالشابشتى ، المتوفى سنة ٣٨٨ هـ . يقوم بتحقيقه ونشره : أنجى كوركيس عواد عن النسخة الفريدة المحفوظة فى خزانة برلين

(٤) الشابشتى ورقة ٢٧

(٥) الشابشتى ورقة ٧٥

(٦) الكامل لابن الأثير (طبعة تورنبرغ ٨ : ٤٦٤)

كتبه أبو إسحق الصابئ عن عز الدولة بن بويه إلى المطيع لله عند فتحه الموصل ، وهزيمة أبي تغلب بن حمدان — فقد قال : « وكان انهزامه (أبي تغلب) بعد أن نمل النمل السخيف ، وكادنا الكيد الضعيف ، بأن أغرق سفن الموصل وعدوتها ، وأحرق جسرها واستذم إلى أهلها[1] ... »

وأورد الخفاجى في شفاء الغليل ما ذكره ياقوت ، ومما زاد عليه قوله : « ... وأنا لا أدرى هل المركب المسمى عربة[2] أخذ من هذا ، أو هو غير عربي وهو الظاهر[3] »

وجاء في حاشيته — لنصر الهوريني المتنى بطبعه — قائلاً : « من معاني العربة في اللغة : النهر الشديد الجرية ، ففي هذا الإطلاق تجوز »

وقد أشار إليها الخوارزمي في مفاتيح العلوم بقوله : « العربة طاحونة تنصب في سفينة وجمعها عرب[4] »

ومما ورد في ديوان الأدب للفارابي قوله : « لمروبة دوار ، أي ماء تدار به »

(١) صبح الأعشى للقلقشندي (٦ : ٤٨٧)

(٢) جوابا لهذا وإتماما للفائدة راجع : ١ — رحلة ابن بطوطة (طبع باريس ٢ : ٣٦١ — ٣٦٢) . ٢ — مجلة الضياء (السنة الأولى [١٨٩٨] ، ص ١٧٧) . ٣ — مجلة لغة العرب (٨ [١٩٣٠] ص ٢٨٥ — ٢٩٠ ، ٦١٣ — ٦١٩) . ٤ — مجلة مجمع اللغة العربية الملكي (الجزء الثاني ص ١٢٣)

(٣) شفاء الغليل للخفاجي (المطبعة الوهبية ص ٥٦)

(٤) مفاتيح العلوم للخوارزمي (طبع ليدن ص ٧١)

الخلاصة

نخرج من هذا المقال إلى أن هذه الطواحين كانت تقوم على سفن متجاورة يتخللها مضايق ينحبس فيها ماء النهر ، وقد نصبت فيها دواليب ذات عنفات[1] ؛ تدور بتأثير الماء الشديد الجرية وتقوم هذه الدواليب بتدوير دواليب أخرى متصلة بالضرائر أي أحجار الطواحين .

ويؤيد هذا ما ذكرته مجلة (لغة العرب) أن العربة هي الرحى التي تكون في السفينة في الماء ، ليطحن بها القمح أو يعصر بها البزر أو يستخرج بها الزيت ؛ ولها دولاب ، وللدولاب عنفات يضربها الماء فتدير الرحى ، وهي بالإفرنجية Pressoir Hydraulique[2]

لا شك أن تلك السفن كانت كبيرة بحيث تستوعب المقادير العظيمة والحبوب ، وقد كانت الشبارات والزبازب والسميريات وغيرها من وسائل النقل النهرية وقتذاك[3] في ذهاب وإياب ، تقوم بنقل الناس مع أوقارهم إلى هذه العروب . ولا غرو إن كان دجلة والفرات عند جريهما بين يدي تلك البلدان الشهيرة بهذه العروب ؛ تزدحمان بهذه السفن وتزخران بحركتها المتواصلة .

(بغداد) ميخائيل عواد

(١) العنفات هي أجنحة دواليب العربة ، مفردها العنفة

(٢) لغة العرب (٨ [١٩٣٠] ص ٢٨٧)

(٣) للتوسع في معرفة أنواع السفن والمراكب النهرية القديمة ، يراجع مقالة نفيسة نشرها الأستاذ حبيب زيات في لغة العرب (٥ [١٩٢٧] ٤٦٠ — ٤٦١) بعنوان : « السفن والمراكب في بغداد في عهد العباسيين »

١/٣ عدد الرجال
لا يتمتعون ببهجة الحياة !
لولوتيطس
لولوتيطس
مجانا
(سجل تجاري (٥٢٢٧))

صاحب الديوان المتمرد

لست أدرى أثورة روحه أعظم من ذكاء عقله، أم أن ذكاء عقله أرجح كفة من ثورة روحه ؟ فهو إن أردت فيه كلمة الحق ذكى ملتمع الذكاء، ثائر ملتهب الثورة ؛ وهو فتى فى ربيع الحياة لم يعد فيما أظن الثالثة والعشرين من عمره

رأيته أول ما رأيته هادئاً كالطفل الذى يحلم أحلام نفسه النقية ، ولكنى لم ألبث أن وقعت منه على ثائر تأكل ثورته أعصابه وتحرق دمه فى غير هوادة ولا إبطاء . على أننى رأيت من عذوبة روحه مع ذلك ما جعلنى أعجب كيف يجتمع مثل هذا التمرد الصاخب ومثل هذا الظرف الفكه فى نفس واحدة ! وإن أسارير وجهه لتتشكل بما يجرى فى نفسه فتكون صفحة محياه كسماء (أمشير) لا تصفو حتى تتجهم، ولا تتجهم حتى تنقشع من رقتها الغيوم. دنوت منه ألتمس حل مسألة عنده، وما أكثر ما تدفعنى المسائل دفعاً إلى أصحاب الديوان ! وما يثقل شيء على نفسى مثل أن ألتمس معروفاً عند صاحب ديوان كبيراً كان أو صغيراً صديقاً كان أو لا يربطنى به سبب من معرفة . وأنا وإن كتبت عن أصحاب الديوان ما أكتب وأنا مطمئن فى حجرتى ولدى مكتبى ، ليركبنى الخوف ويتملكنى الحياء وتأخذنى الربكة من جميع أقطارى كلما دخلت حجرة أحدهم لأحادثه فى أمر جل أو هان؛ حتى لو كان لتحية. وسبب ذلك لا يزال مجهولاً عندى، ولن يزداد على الأيام إلا غموضاً وخفاء!

وأقبل على صاحب الديوان هاشاً مرحباً ، وترك أوراقه كلها جانباً ، وأخذ يستمع إلىّ . ولم أكد أستميد توازنى أو أسترد مواقف دفاعى كما يقول المتحدثون عن الحرب فى هذه الأيام ، حتى قطع على الكلام ومال بالحديث عن مجراه ودفعه في شؤون كثيرة لا علاقة لها ألبتة بما جئته من أجله . وأخذ يتحدث ثم يتحدث ، وكل حديثه شكوى ، وهو لا يكاد يقع على أمر حتى يطير عنه إلى غيره — لا يعنى متى يطير ولا أين يقع — فللمحسوبية نصيب من حملاته ، ولعدم إخلاص الناس فى أعمالهم بعض سهام لومه ، وللحرب القائمة والمسئولين عنها جانب من غضبه ، ولفوضى الأخلاق قدر كبير من صخبه ، ولتقلب الجو قسط من تهكمه تجلت فيه براعة مقارنته بين أخلاقنا وطبيعة جونا؛ وللفن والأدب والتعليم وغيرها من الأمور مما لا يسعنى حصره ، كثير من غمزاته واللفتات ذهنه ... كل أولئك وأنا ممسخ أسلم على طول الخط بكل ما يقول ، لا أخالفه ولا أراجعه عله يفرغ فألتمس السبيل إلى موضوعى من جديد ، ولكن ثورته كانت كالسيل الجارف لا يلوى على شيء . . . وكان يدخل أثناء الحديث كثير من الخدم، فيقدمون إليه أوراقاً ، فيأخذها ويضمها على غيرها من الأضابير دون أن ينظر فيها؛ فاذا أشار أحدهم إلى أن فيها ما تستعجل الإجابة عنه صرفه بقوله: « قل له حالاً ... دقيقة واحدة » . ثم عاد إلى حديثه ، فجرى فيه على غير تحبس أو ملل

وجاء بعض زملائه يستعجلونه أوراقاً ، وكان يلتفت بعضهم إلى قائلاً : « لا مؤاخذة يا بيه » كأنما كنت أنا سبب ما من عطلة ؛ وهو منصرف عنهم بحديثه لا يزيد على أن يسمعهم من يستعجله منهم دقيقة ؛ ثم يستأنف حديثه وهو أنشط وأهدأ بالاً مما كان ! وانتهزت فرصة فعبرت له عن اعتذارى ، وقد غالطت نفسى ونسبت إلى أنا السبب فى ضياع هذا الوقت كله ، وفهم صاحب الديوان إشارتى، فابتسم وقال: «لا ... العفو يا أخى ، لازم كلامى لم يتشرف برضاك » ... ونفيت ذلك بكل ما أملك من معانى التأكيد ومضيت أثنى على حديثه بكل ما وسعنى من عبارات الثناء ، فاطمأن قليلاً ، وسكت هنيهة ثم قال : « انت عاوز الحق؟ الواحد أهو بيشتغل على قدر المقرشين بتوعهم » ولم أستطع أن أرد على ذلك القول الذي يتضمن السكوت عليه نوعاً من الاشتراك فى الأخذ بما يدعو إليه، وما كان سكوتى إلا لأعود إلى موضوعى، وقد عقدت العزم على أن أعود إليه بأى ثمن

وبلغت ثورته أقصاها إذ تداعت إليه من هذا الكلام قصة الأقدمية ، فراح يشكو فى ألم واضطراب من أن الترقى بالأقدمية معناه أن يتساوى المجدد والمتكاسل والذكى والغبى والكفء والعاجز. فالمسألة مسألة زمن فحسب ، ومتى مرت الأيام صار الموظف بحكم الزمن وحده كفؤاً مهما كان من عجزه وتقصيره. فما معنى أن يجهد المرء نفسه إلا أن يكون « عبيطاً » وهو لا يدرى « عبطه » ! وضرب المثل بنفسه : فهو يحمل شهادة عالية ورئيسه من حملة الابتدائية . وضحك صاحب الديوان وقال : « يعنى أبدأ جحشاً ثم يمر الزمن فأصبح حماراً ، وعند ذلك أصير أهلاً للرقى »

وكان موعد انصراف أصحاب الديوان قد حان فنهض ومد إلىّ يده ضاحكاً وهو يعبر عن أسفه لأن الوقت لم يتسع لموضوعى ويدعونى إلى الحضور مرة أخرى .

الخفيف